

ضريح الباى مصطفى بوشلاغم بمدينة مستغانم دراسة تاريخية أثرية

د. بلجوزى بو عبدالله

ملخص

عرفت الأضرحة انتشارا كبيرا في العهد العثماني، وشهدت الجزائر بناء الكثير منها، منها ما كان مخصص لبعض البايات الذين خلّدوا أسماءهم عليها، ومنها ما كان مخصص للأولياء الصالحين، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر، ضريح الباى مصطفى بوشلاغم بمدينة مستغانم، والذي حبسه هذا الباى على نفسه وعائلته، ونظرا لأهمية هذا الضريح سنقوم بدراسته من الناحية التاريخية والأثرية.

الكلمات المفتاحية: العهد العثماني، مستغانم، ضريح، الباى، مصطفى بوشلاغم ،

Mustafa Bey Boshlaghem shrine in Mostaghanem city: a historic and archaeological study

Abstract:

Shrines knew great prevalent in the Ottoman Empire in Algerian areas , some of them was dedicated to some Beys who immortalized their names on them, some others was dedicated to the righteous persons. The Bey's Mustafa Boshlaghem shrine in Mostaghanem is one of these famous shrines, which remanded this bey's on himself and his family. In this research we are going to deal with the importance of this shrine in both the historical and archaeological plans.

Keywords: Ottoman, Mostaganem, shrine, Bey, Mustafa boshlagham,

ضريح الباى مصطفى بوشلاغم بمدينة مستغانم:

تمهيد:

يُطلق على هذا الضريح إلى اليوم من طرف أهل منطقة مستغانم اسم ضريح الباي مصطفى بوشلاغم وابنته العيشوش¹، ظنا منهم أن ابنته مدفونة معه، وقد ظل هذا الاعتقاد سائدا إلى غاية اكتشاف مجموعة من شواهد القبور أثناء عملية تنقيب وترميم أجريت داخل احد المساجد القديمة بمدينة تلمسان² يطلق عليه مسجد أولاد الإمام³، وذلك في سنة 2010 يؤرخ لتاريخ وفاة ابنة الباي بوشلاغم، ويذكر أنها توفيت بتلمسان وليس بمستغانم، وهذا ما أكد لنا أن الضريح الموجود بمستغانم مدفون فيه فقط الباي بوشلاغم على حسب المعلومات التاريخية في غياب أي معلومات تؤكد دفن احد من عائلته معه، ولمعرفة تفاصيل أكثر عن هذا الباي، وهذا الضريح، ارتأينا القيام بدراسة تاريخية وأثرية عليه في هذه الورقات البحثية.

الدراسة التاريخية:

- المؤسس:

ينسب بناء هذا المعلم إلى الباي مصطفى بوشلاغم⁴، الذي كان حاكما على منطقة وهران، مقر البايك منذ فتحها سنة 1120هـ/1708م إلى غاية 1145هـ/1732م تاريخ استرجاعها من طرف الإسبان⁵، وظل بوشلاغم الذي انسحب إلى مستغانم بايا على باييك الغرب إلى أن توفي ودفن بالمطمور سنة 1734م، وبنيت على ضريحه قبة⁶.

وقد رثاه العلامة السيد يوسف بن بغداد الزياتي⁷، بهذه الأبيات التي

تؤكد وجود ضريحه بمستغانم:

هنيئاً لك الجنان لا السعير	يا كافل الأرامل يا بشير
لقد عشت سعيدا في رغد عيش	وفزت بالشهادة يا أمير
ببلدة مستغانم كان المثوى	فنعم السكنى سكناك يا نحير
و جاورت بالضريح خير إمام	وبالمطمر ضريحك مستنير

ويذكر الأغا بن عودة المزاربي⁸، أن هذا الضريح بني من طرف الباي بوشلاغم الذي حبسه على عقبه وعقب عقبه، وكتب عليه اسمه وتاريخ بناءه بما نصه: "حبس هذه القبة المباركة و الروضة المروقة أمير المؤمنين العاشق المحب في سيد المرسلين الباي مصطفى بن يوسف محي الدين رزقه الله كمال اليقين، وأفاض عليه من كرامة الصالحين أمين يارب العالمين على عقبه وعقب عقبه بأن لا يدفن فيها غيرهم، ومن بدل أو غير فالله حسبه ويتولى الانتقام منه وأتممت وكملت هذه القبة على يد المعلم أسطى أحمد أعراب الجزائري بتاريخ أواخر شهر الله شعبان عام ستة وعشرين ومائة وألف ثم هاتين البيتين من الرجز:

يا داخل القبة الله يرعاك أبشر بما ترجمه من خير مو لأك

وكتب لهذه الأسطار أسطى أحمد صفه بالنجار "

- تاريخ التأسيس:

يتبين من نص الوقفية أن تاريخ بناء هذا الضريح كان بتاريخ أواخر شهر الله شعبان عام ستة وعشرين ومائة وألف لكن يبدو أن هناك خطأ فيما يخص تاريخ البناء لأنه لا يعقل أن يكون الباي بنى ضريحه في هذه السنة لأنه كان في هذه الفترة بوهران، أو أن يكون خطأ مطبعياً وكان القصد منها 1146هـ/1734م.

- التغيرات والتجديدات:

استعمل هذا الضريح قبل الاحتلال الفرنسي كقاعة للصلاة، وبعد الاحتلال تحول إلى قاعة للعلاج، وذلك قبل بناء المستشفى⁹، ثم استعمل كمخزن للسلاح¹⁰.

بعد الاستقلال استحوذت عليه عائلتين وسكنت فيه إلى غاية 1418هـ/1997م حيث قررت السلطات المحلية إخلاءه، وبعد ذلك ترميمه، وبالرغم من بقاءه محافظاً على فضائه المعماري إلا أن الترميمات التي أجريت عليه مؤخراً أفقدته جماله الفني والأثري، وذلك بسبب استخدام مواد البناء الحديثة التي ما لبثت أن أحدثت به عدة تشققات¹¹.

كما تجدر الإشارة إلى أن هذا الضريح قد أجريت فيه حفرة إنقاذية قامت بها بعثة الوكالة الوطنية للآثار، حيث قامت بحفر أرضية الحجرة الكبيرة والصغيرة على عمق حوالي 1,5 م، وكانت من نتائج هذا الحفر وجود عدة قبور في وضعيات مختلفة دلت على أن الضريح تعرض لعمليات تخريب ونبش للقبور، ولم تعثر البعثة على أية شواهد للقبور التي من شأنها أن تكشف عن الشخصيات المدفونة بهذا الضريح منها على وجه الخصوص شاهد قبر الباي مصطفى بوشلاغم¹².

- الدراسة الأثرية:

- الموقع:

يقع هذا الضريح على هضبة في أعالي حي المظفور، وللوصول إليه نأخذ عدة طرق أقربها بالنسبة للشخص الموجود بوسط المدينة الطريق المتجه نحو حي العرصة مروراً بالجسر الكبير، وعند المنعرج الأول يظهر لنا الضريح محاط بسور خارجي.

- المخطط العام:

يتربع هذا الضريح على مساحة تقدر بحوالي 142م²، شكله العام عبارة عن مستطيل، يحيط به سور خارجي طوله 27م وعرضه 20م، (انظر المخطط)

- الوصف الخارجي:

يتكون هذا المعلم إلى جانب ثلاث واجهات لا تظهر عليها أي تفاصيل معمارية أو فنية من واجهة رئيسية واحدة في الناحية الجنوبية تطل على شارع بن زهية عبد القادر. (الصورة رقم: 01)

بعد الدخول من الباب الرئيسي للسور المحيط بالمعلم يقابلنا مباشرة مدخل الضريح، وهو عبارة عن فتحة جدار غائرة يغطيها عقد نصف دائري يقوم على كلا جانبيه عمودين دائريين متماثلين بينهما فتحة باب ذات مصراع خشبي واحد يعلوها عقد نصف دائري، وعلى واجهة كتلة المدخل ككل نجد زخارف جصية، تتوسطها اللوحة التأسيسية التي يفترض أن تكون حاملة للنص التأسيسي، لكنها فارغة وضعت أثناء الترميم للدلالة على المكان الأصلي للوحة، وهذا ما توضحه صورة قديمة للباب الرئيسي تعود للفترة الاستعمارية تبين نص اللوحة، لكن لشدة طمسها لم نستطع قراءتها. (الصورة رقم: 02)

هذا عن الواجهة الخارجية، أما عن المبنى ككل فتعلوه قبتان متفاوتتان في الحجم، الكبيرة منهما تخص الحجرة الضريحية للباي بوشلاغم، أما الصغيرة فتخص حجرة ابنته العيشوش على حسب الاعتقاد الذي كان سائداً.

- الوصف الداخلي:

يفضي المدخل الرئيسي إلى بهو مستطيل طوله 5.3م وعرضه 2.5م سقفه جاء على شكل قبو متقاطع، على يساره نجد مصطبة مكسوة بمربعات خزفية حديثة، يوجد به ثلاث فتحات لثلاثة أبواب، يفضي أحدها إلى سلم ذو درجات حجرية يؤدي إلى سطح الضريح، والباب الثاني إلى حجرة صغيرة طولها 1.5م وعرضها 1.2م لا ندري ما وظيفتها ولكن يبدو أنها كانت تستعمل لتخزين بعض الأغراض الخاصة بالضريح، أما فتحة الباب الثالث فتفضي إلى حجرة الضريح، وهي مربعة الشكل تقريبا طول ضلعها 10م فرشت أرضيتها بالإسمنت المسلح، وغشيت جدرانها إلى منتصفها بمربعات خزفية حديثة.

يلاحظ في جدارها الجنوبي نافذتين صغيرتين معقودتين في أعلاهما بعقد نصف دائري تتوسطهما في أسفلهما نافذة مربعة الشكل، أما في جدارها الشمالي فنجد نافذتين صغيرتين بنفس الحجم، كما نلاحظ في ركن كل من الجهة الجنوبية الشرقية، وركن الجهة الشمالية الشرقية نافذتين متماثلتين ومتقابلتين.

أما في ركن الجهة الجنوبية الغربية فنجد فتحة باب تؤدي إلى حجرة مستطيلة بطول 03م وعرض 1.5م سقفا على شكل قبو، تفضي بدورها عبر باب صغير إلى ساحة الضريح.

نلاحظ في كل ركن من الأركان العلوية الأربعة لحجرة الضريح حنايا عبارة عن عقد نصف دائري يرتكز طرفاه على زوج من الأعمدة الأصلية المصنوعة من الحجر الرملي، سقفت هذه الأركان بمثلثات كروية من الأجر غير المثقب، تقوم على هذه العقود رقبة مثمثة ترتكز عليها القبة المثمثة الكبرى الخاصة بحجرة الباي (الصورة رقم: 03)، في مؤخرة هذه الحجرة فتحة على شكل عقد نصف دائري تفضي إلى حجرة صغيرة مستطيلة طولها 2.5م، وعرضها 02م ترتفع بدرجة واحدة على الحجرة الكبيرة.

بلطت أسافل الجدران الداخلية لهذه الحجرة بمربعات خزفية حديثة تعلوها في عمق هذه الجدران عقود نصف دائرية صماء تتوسط الجهة الشمالية الغربية منها والجنوبية الشرقية نافذتين بنفس المقاس تقريبا، وتعلو الحجرة رقبة مئمنة تقوم عليها القبة المئمنة، والتي تتخللها أربع فتحات صغيرة صماء.

- لقد تعذر علينا معرفة مواد البناء الأصلية المستخدمة في بناء هذا الضريح، وذلك نظرا للترميمات التي أجريت عليه، وبالتالي كان اعتمادنا على الصور التي التقطت للضريح قبل ترميمه، حيث يبدو أن مواد البناء المستخدمة هي مزيج من الآجر، والحجارة غير المنتظمة، حيث استعملت هذه الأخيرة في بناء الجدران الخارجية للضريح، واستعمل في ربطها الملاط الأحمر و كسيت بالجص، أما الآجر فاستعمل في تشكيل العقود الداخلية، وفي بناء القبتين، كما استخدم في تشكيل القبو المتقاطع الذي يعلو البهو.

أما أرضية هذا الضريح فبلطت بالإسمنت، في حين وجدنا في أحد أركان ساحة الضريح كمية معتبرة من بلاطات سداسية من نفس مادة الآجر رجحنا أن تكون هي الأصلية التي بلطت بها أرضية الضريح نزعنا أثناء عملية الحفر التي قامت بها البعثة.

هذا من ناحية مواد البناء، أما من الناحية الزخرفية فلا شيء يسترعي الانتباه سوى الزخارف الجصية الحديثة التي كسيت بها الأجزاء العلوية وسقف البهو، وهي نفسها المكسوة بها الأجزاء العلوية لحجرة ضريح الباي، بما فيها واجهات العقود أيضا، كما نجد هذه الزخارف الجصية تكسو الأجزاء العلوية لكنتلة المدخل، ونشير إلى أن هذه الزخارف الجصية سواء في الداخل أو الخارج تتشابه فيما بينها، وهي عبارة عن زخارف هندسية ونباتية، وشريط كتابي يحمل عبارة " العزة لله " مكررة مع ملاحظة أنه توجد صور للضريح التقطت قبل ترميمه تبين أهم الزخارف التي كانت بداخله، ولا ندري إن كانت هذه الزخارف أصلية أم استحدثت أثناء الاحتلال الفرنسي (الصورة رقم: 04)

كما نجد داخل هذا المعلم الكثير من المربعات الخزفية المتنوعة التي تكسوا أسفل الجدران الداخلية للضريح ككل على ارتفاع حوالي 1,5م، ويوجد على شكل شريط يكسو رقبة القبة وكلها حديثة.

وتجدر الإشارة أيضا أننا وجدنا كمية معتبرة من المربعات الخزفية في ساحة الضريح، ونعتقد أنها نزعنا أثناء الترميم أو جلبت من معالم أخرى، ويبدو أنها أصلية وذلك بملاحظة طريقة صنعها التي تتميز بحوافها المائلة وسمكها الغليظ، بينما الحديثة تتميز أركانها الأربعة بزوايا قائمة ومستقيمة فضلا عن سمكها الرقيق¹³.

ونظرا لتنوع هذه المربعات الخزفية لم نستطع معرفة نوع المربعات الأصلية التي كانت تكسو الجدران الداخلية للضريح، ولذلك قمنا بجرد مختلف المربعات بحسب زخرفتها (الصورة رقم: 05).

ملحق البطاقة التقنية والمخطط والصور:

النص الكتابي لشاهد القبر:

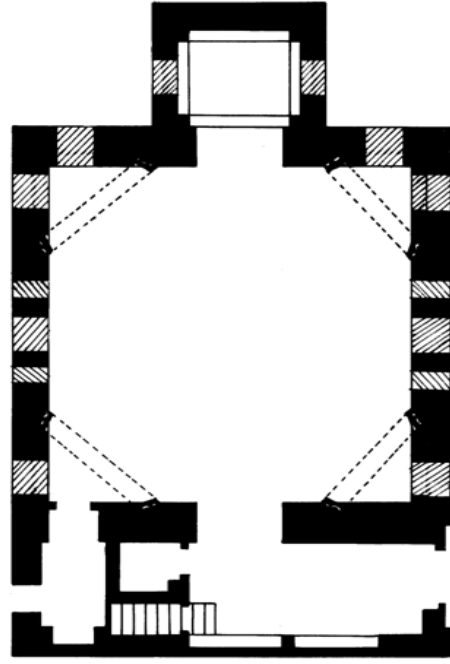


- 1- أما بعد فهذا
- 2- قبر الحرة الجلييلة أمة
- 3- الله العيشوش بنت
- 4- المجاهد في سبيل الله
- 5- المرحوم مصطفى
- 6- باي الملقب بوشلا
- 7- غم رحمة الله عليها
- 8- عام 1198

شاهد قبر العيشوش بنت الباي مصطفى

البطاقة التقنية لشاهد القبر:

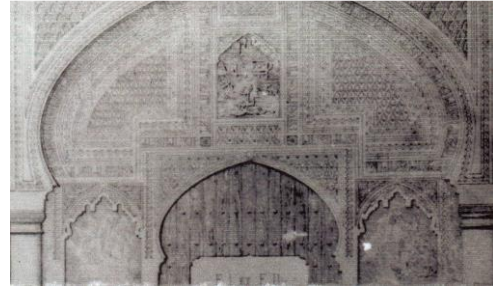
المصدر	مسجد أولاد الإمام بتلمسان
طبيعة الشيء	شاهد قبر
مادة الصنع	حجر إردوازي
المقاييس	ارتفاع= 85سم ، عرض= 42سم ، سمك= 5سم
طبيعة الكتابة	شاهدية
نوع الخط	مغربي
عدد الأشرطة	/
عدد الأسطر	08 اسطر
التاريخ	1198هـ/ 1783م
الحالة	جيدة
مكان الحفظ	متحف تلمسان
رقم الجرد	/



المسلم : 1/100

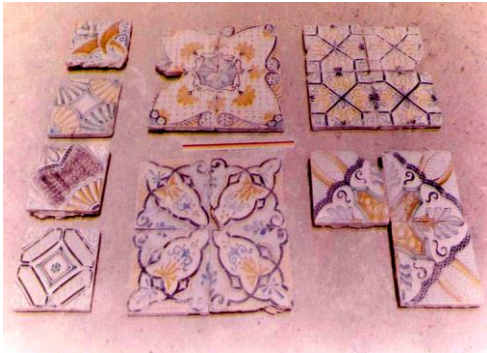
الصورة 01: الواجهة الخارجية لضريح الباي

المخطط: ضريح الباي بوشلاغم (عن بلجوزي بوعبدالله،



الصورة 03: منظر داخلي بضريح الباي

الصورة 02: المدخل الرئيسي الأصلي لضريح الباي بوشلاغم
قبل ترميمه.



الصورة 05: أنواع البلاطات الخزفية بضريح الباي
بوشلاغم.

الصورة 04: الزخارف الجصية بضريح الباي بوشلاغم
قنا، تدممه

خاتمة:

عرّفتنا الدراسة التاريخية والأثرية لضريح الباي مصطفى بوشلاغم بأهمية هذه الشخصية ودورها في تاريخ بايلك الغرب، كما صححت لنا الاعتقاد الخاطئ بوجود قبر ابنة الباي بوشلاغم مدفونة داخل الضريح، هذا من جهة ومن جهة ثانية، فإن اختفاء وقفية الباي بوشلاغم، وكذلك عدم العثور على شاهد قبر الباي خاصة بعد الحفرية الإنقاذية التي أجريت فيه سنة 2002 يُبقى التساؤل مطروحا حول مصير قبر الباي بوشلاغم.

كما يجب الإشارة أيضا إلى أن يد التخريب التي لحقت بالضريح خلال المراحل التاريخية التي مرّ بها سواء في فترة الاحتلال الفرنسي أو بعده، أثّرت عليه وأفقدته الكثير من أصالته، وبالرغم من قيام الجهات المعنية بحفظ التراث بترميمه، إلا أن العملية لم تكن في المستوى المطلوب، وهو ما يحتم علينا إعادة النظر في طرق الترميم وأساليب الحفاظ.

قائمة المصادر والمراجع:

1 - **العيشوش:** لم تذكر المصادر التاريخية بالتفصيل مصير عائلة الباي بوشلاغم بعد وفاته بمستغانم، باستثناء ذكر خلافة ابنه الباي يوسف له على رأس البايك، والذي أعاد نقل عاصمة البايك من مستغانم إلى معسكر وتولاه لمدة عام واحد، ثم ذهب إلى تلمسان وتوفي بها بمرض الطاعون، وهذه المعلومات التي أوردها محمد بن يوسف الزباني* قادتنا إلى الاستنتاج إلى أن وجود شاهد قبر ابنة الباي بوشلاغم في تلمسان يدل على أن عائلة الباي انتقلت إلى العيش بتلمسان إما بعد إخراج الباي من وهران من طرف الاسبان وتراجعه بعد ذلك إلى مستغانم، وإما بعد ذهاب الباي يوسف السالف الذكر إلى تلمسان والوفاة بها.

*- محمد بن يوسف الزباني، **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران**، تقديم وتعليق: المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978م، ص.194.

2 - PROJET DE RESTAURATION DE LA MOSQUEE OULED EL IMAM, BET/HANICHE: ETUDE DE RESTAURATION.

3 - **ينسب هذا المسجد** الذي يقع بالقرب من الباب القديم المعروف في العهد الزباني بباب قشوط أو باب فاس إلى الأخوان الإمامان ابني الإمام، أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى، ولدا في برشك - مدينة ساحلية بين شرشال وتنس - في تاريخ لم تذكره المصادر، واشتهرا بلقب ابني الإمام لان أباهما كان إماما ببرشك، انتقلا بعد مقتل والدهما إلى تونس ودرس على بعض علمائها، ثم عادا إلى المغرب الأوسط وانتصبا للتدريس بمدينة الجزائر ثم مليانة، وعندما انتهى الحصار المريني على مدينة تلمسان، استدعاهما الأمير الزباني أبو حمو موسى الأول لسماعه بشهرتهما في ميدان العلم والمعرفة، وقربهما إليه، واصطفاهما لنفسه، وبنا لهما مدرسة عرفت بلقبهما إلى اليوم،

- وفي سنة 741هـ توفي الأخ الأكبر أبو زيد عبد الرحمن ودفن بمسقط رأسه برشك، والتحق به أخوه في سنة 749هـ ودفن أيضا ببرشك، ولمزيد من التفاصيل ينظر:
- عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مج7 دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، 2000، ص.(133-134).
- محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق وتقديم محمود بوعيايد، إصدارات المكتبة الوطنية، الجزائر، 1985، ص139.
- أبي القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج.2 ص.(11-25)
- يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج.2، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص.(19-24).
- 4 - هو الباي مصطفى بوشلاغم بن يوسف بن محمد بن إسحاق المسراتي، تولى بايا على مازونة وتلمسان سنة 1098هـ/1696م، نقل كرسي مملكته من مازونة وتلمسان معا إلى قلعة بني راشد، ثم إلى معسكر واختارها قاعدة لأيالاته لتوسطها بين مازونة وتلمسان، ولما فتح وهران سنة 1119هـ/1708م نقل كرسي مملكته من معسكر إلى وهران، وأقام بها مدة إلى أن هاجمه الإسبان، فخرج منها إلى مستغانم و بقي بها إلى أن توفي سنة 1146هـ/1734م. أنظر:
- محمد بن يوسف الزياني، المصدر السابق، ص.192-193.
- 5 - المصدر نفسه، ص.193.
- 6 - الأغا بن عودة المزارعي، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا في أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة: يحي بوعزيز، ج.1، ط.01، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، 1990 ص. 275.
- 7 - المصدر نفسه، ص. 276.
- 8 - المصدر نفسه، ص. 275.
- 9 - Esterhazy (W.), *De la domination turque dans l'Ancienne régence d'Alger*, Paris, 1840, p. 174.
- 10 - Piess louis, *Itinéraire de l'Algérie de la Tunisie et de Tanger, 09 cartes et 10 plans*, Librairie Hachette, Paris, 1885, p. 272.
- 11 - بلجوزي بوعبدالله، المنشآت المعمارية للباي مصطفى بوشلاغم بباليك الغرب الجزائري، مجلة آثار، مجلة علمية سنوية محكمة يصدرها معهد الآثار، جامعة الجزائر2، العدد 11، 2014، ص(165-177)، ص.172.
- 12 - Kheloufi (S.) Et d'autre, *Le mausolée du bey Bouchlaghem à Mostaganem*, rapport de mission, A.N.A.P.S.M.H. Mostaganem, 2002, p.03
- 13 - محمد الطيب عقاب، قصور مدينة الجزائر في أواخر العهد العثماني، الحكمة- الجزائر، 2000، ص.204-205.